



أحلام طفل كسول

— صورة مروشي - الجزائر —



ولا ينهض حتى يثير غضبها، فتتزع عنه غطاءه بانفعال، وتسحبه من سريره بالقوة، وهو بين يديها جسم رخوي لا يقوى على الوقوف، وماتزال تماركه حتى يقف بصعوبة، فتأخذه إلى الحمام كي يغتسل، ثم إلى المطبخ كي يفطر، ولا يرتدي ملابسه وحذاءه ويحمل محفظته حتى يكون قد أرهقها، وتصيب العرق من جبينها، وازدادت ضربات قلبها فتكاد تسقط مغشياً عليها! وربما استجذبت بوالد وائل فيتعاونان عليه، وهما يتداولان على خدمته استعداداً لخروجه إلى المدرسة! وما يزالان به هكذا صباح كل يوم حتى أضحيا يكرهان الصباح لما ينتظرهما من عناء ومشقة وجهد! ولو كان وائل طفلهما التوحيد لكان في ذلك بعض العزاء، لكن لديه إخوة صغار بحاجة إلى الخدمة أيضاً، وهو بكسله وخموله يسبب لعائلته الكثير من المشاكل.

قال له والده وهو يتحدث إليه باللين:

- يا ولدي.. يا حبيبي!.. أنت الآن في التاسعة من عمرك، ويمكنك الاعتماد على نفسك.. أن تنهض في الصباح دون أن نلج في ذلك، تذهب إلى الحمام

كان وائل طفلاً كسولاً جداً لا يحب عمل شيء، لا في البيت، ولا في المدرسة، ولا في أي مكان. يفضل النوم طوال الوقت، ويسارع بالاستلقاء كلما عاد من المدرسة، وإذا طلب منه أحد والديه القيام بعمل ما ظل يردد كالبيغاء كلمات حفظها عن ظهر قلب:

- أنا متعب.. أنا نعسان.. لا أقوى على الحركة.. اتركوني أرتاح قليلاً!

حاول والداه بكل الطرق أن يخلصاه من كسله وخموله، تارة بالكلام اللين، وأخرى بالصراخ عليه وزجره، وفي أحيان كثيرة بالضرب، فقد تجاوز الثامنة من عمره، ولا بد من تأديبه بكل الطرق قبل فوات الأوان، لأنه إن كبر ولم يتخلص من العادات السيئة والطباع المعوجة فستترسخ فيه أكثر كلما كبر حتى تصبح مشكلة حقيقية تهدد مستقبل حياته.

تقول له أمه صباح كل يوم:

- هيا انهض فقد حان وقت المدرسة.

وتذهب وتجيء إليه عشرات المرات وهو يتمطى في فراشه لا يقوى على النهوض، قائلاً وعيناه مغمضتان:

- دعيني أنام.. لحظات أخرى.. سأنهض!

- ليتني كنت عصفوراً أطيّر بعيداً في السماء فلا
يمسكني أحد من البشر، ولا أسمع النهي والأمر!
فإذا مر بقطيع من الغنم يرفعى قال في نفسه:
- كم هي سعيدة هذه الخرفان! تقضي يومها
تأكل الأعشاب والحشائش بلا توقف، ثم تعود في
المساء إلى حظائرها فرحة مبهجة.. لا عمل لديها
إلا الأكل.. يا لسعادتها..
- ليتني كنت خروفاً في هذا القطيع، أكل طوال
اليوم ثم أوي إلى فراشي سعيداً مبهجاً!

وائل والقطط

ذات يوم، وبينما وائل جالس أمام بيته وقد
أغضب والديه كعادته، نظر إلى القطط بإعجاب
شديد وظل يحرق فيها، وبينما هو كذلك، إذ به يشعر
بشيء لم يتبينه في البداية، لكن إحدى القطط نظرت
إليه بعينها السوداءوين، وقالت له بتحد:
- من أين جئت أيها القط الغريب؟ هل تريد
مقاسمتنا طعامنا وشرابنا؟
تعجب كيف أنه فهم لغتها حين تحدثت إليه، بل
كيف خاطبته أصلاً ففهمها؟! نظر إلى نفسه فإذا به
قد استحال قطعاً بُنيّاً كبيراً بوبر كثيف على جسمه،
وشاربين دقيقين طويلين، وعينين زرقاوين كبيرتين،
وذيل طويل، وقوائم أربعة تنتهي بمخالب حادة..
صرخ من هول المفاجأة:
- يا لسعادتي!.. لقد تحقق حلمي أخيراً، وأصبحت
قطعاً قوياً.. سأشبع نوماً ولن يأمرني أو ينهاي والدي
عن فعل أي شيء.. لقد تحررت أخيراً منهما..
وسارع بالجوء إلى مكان القطط الذي طالما
تمددوا فيه بنشوة، فتمدد بدوره وأخذ يتشاءب
ويتمطى منتظراً الطعام الذي سيأتيه حتماً في أوانه،
فيأكل حتى يشبع، ثم يعود إلى النوم.. يا لسعادته..

وحدك فتغسل وجهك، ثم تتناول فطور الصباح
وحدك، وترتدي ملابسك وخذائك وحدك.. كل
الأطفال في سنك يفعلون ذلك.. أسألهم..!
ثم يضيف قائلاً:

- وعندما تعود من المدرسة لا ترم بأغراضك في
كل مكان، ولا تسارع بالاستلقاء أمام التلفاز.. ثم إذا
طلبنا منك عمل شيء فسارع بعمله.. ولديك إخوة
صغار بحاجة إلى أمك، وهي وحدها لا تستطيع عمل
كل شيء لنا.. ألا تحب مساعدة عائلتك؟

فيجيب وائل وهو نعسان:

- أنا أحاول يا أبي!

فيقول الأب بلهجة غاضبة:

- نحن لا نرى أي أثر لمحاولاتك.. كل يوم نفس
الحكاية.. انظر إلى أمك تكاد تجن لتصرفاتك..
فيصمت وائل ولا يجيب. فهو لا يفكر سوى في
الاستلقاء على الأريكة ومشاهدة التلفاز.. ما أجمل
الراحة والاسترخاء أمام التلفاز..!

كلما عاد وائل من المدرسة، لفت انتباهه قطط
البيت كم هي سعيدة في حياتها! تقضي يومها في
النوم، تتمطى وتتشاءب طوال الوقت، لا يطلب منها
فعل شيء، ثم إن طعامها يصلها إلى فمها فلا تبذل
أي جهد للحصول عليه.. فيقول في سره متحسراً:
- ليتني كنت قطعة فأنعم بالنوم طوال اليوم!..

وكلما مر بالعصافير الصغيرة وهي تلتقط
طعامها من فتات الخبز المتناثر هنا وهناك، ثم تطير
بعيداً في السماء حرة طليقة فلا يقلقها أحد بأوامره
ونواهيه..

- افعل.. لا تفعل.. إياك أن تفعل.. إياك ألا تفعل!
هذا ما أسمع طوال اليوم..

قالتا وائل متأففاً.. ثم وهو ينظر بانبهار إلى
الطيور المحلقة في السماء قال:



وأخذ وائل يبتعد ويبتعد.. كلما وجد مكاناً يصلح للنوم واستلقى فيه جاء قط شرس وطرده.. وابتعد أكثر باحثاً عن مكان يحقق فيه رغبتيه القويتين.. بل حلمه الكبير.. النوم والأكل! لكنه لم يجد مكاناً آمناً.. وشعر بالجوع والتعب الشديدين، فقد أعياه البحث عن مكان آمن ودافئ ينام فيه..

وأخيراً عثر وائل على مكان جميل، استلقى فيه وأغلق عينيه يحلم بالأكل اللذيذ الذي سيصله من مكان ما كما كان يصل إلى قطط بيته من غير عناء، فإذا بمجموعة من الأطفال الأشرار يقبلون نحوه بعصيتهم.. يطاردونه ويضربونه ويحاولون الإمساك به.. أحدهم أمسك بذيله وجره إليه بقوة فألمه ألماً شديداً..! - اترك ذيلي.. أطلقني.. آه.. أنت تؤلني جداً..!

اجتمع حوله الأطفال الآخرون، وأشبعوه ضرباً وركلاً حتى نزع الدم من مواضع في جسمه.. - يا لكم من أشرار.. أوغاد.. لماذا تضربونني بهذه القسوة؟ ماذا فعلت لكم؟ ثم ما الفائدة عندما تقومون بذلك؟.. أنا طفل مثلكم.. اتركوني وشأني..

لكن الأطفال لم يتركوه، لقد كانوا يلعبون به ويسخرون منه، فهذه إحدى متعهم.. تعذيب القطط واللعب بها.. لم يكن أحد يسمعه أو يشعر بألمه.. لا أحد.. فهو مجرد قطّة حقيرة تائهة، وما أكثر القطط المشردة التائهة التي لا يرحمها أحد.. بأعجوبة انفلت القط وائل من بين أيدي الصغار الأشرار، فأسرع الخطا بقوائمه الأربعة الهزيلة

وأخذ يفني منتشياً:
(لا أسمع الكلام/ في النوم والطعام/ أمضي بها الأيام/ ذي راحة الأناام/ عليكم السلام)
وما إن أغلق وائل عينيه سعيداً بأحلامه حتى جاءه قط أسود كبير، وخذشه بمخلبه قائلاً:
- إي.. أنت.. هذا مكاني.. هيا انهض.. وإلا.. وماء مواء عنيفاً يهدده، فخاف وائل منه، وسارع بالنهوض مبتعداً.. اختار له مكاناً قريباً، واستلقى



فيه.. فإذا بقط آخر يهجم عليه دون سابق إنذار فأشبعه عضاً وخذشاً حتى سال دمه، وتناثر في الهواء شعره الرقيق.. - يا له من قط شرس!.. طردني شر طردة.. ثم أضاف والذهول يملكه من هول ما اكتشفه من مفاجآت مؤلمة:
- تبدو كل الأماكن محجوزة هنا.. لا بأس سأبحث لي عن مكان آخر..

فتملاً المكان بالبهجة والسرور معلنة عن ميلاد يوم جديد.. ونظر إلى نفسه فإذا به عصفور صغير جميل يغرد كما يغردون، ويطير كما يطفرون! صرخ وائل مسروراً:

- الحمد لله، لقد أصبحت عصفوراً جميلاً كما تمنيت، وكما حلمت.. لا أريد أن أكون قطعاً بعد الآن.. أنا أكره حياة القطط المليئة بالمخاطر والمخاوف! طار وائل مع أسراب الطيور التي نهضت باكراً.. يا له من إحساس رائع!.. وهو يطير في السماء بعيداً.. بعيداً.. رأى بأب عينه السحاب الأبيض وهو يخترقه ويطير فوقه، ونظر تحته فإذا البيوت تبدو صغيرة.. صغيرة جداً.. أما الناس فلصفرهم الشديد اختفوا جميعاً فلا يرى منهم أحد.

- لن يعرف والدائي أبداً بمكاني، ولن يأمراني أو ينهياني أو يطلبني فعل شيء.. يا لسعادتي!.. سأقضي يومي كله في الطيران بعيداً، أخلق فوق.. فوق..

والتفت حوله فإذا به وحده في السماء.. يطير بمفرده.. وسط هدوء وسكون..

- أين ذهبت باقي الطيور؟ يبدو أنها لم تنتبه لوجودي معها.. سأحاول اللحاق بها.

وكان لا شيء.. ولا أحد في الكون غيره.. العصفور الصغير.. وائل.. شعر بالخوف.. طار يبحث عن أصدقائه من الطيور، لم يجد لها أثراً.. هي تعرف المكان، وتعرف أين تذهب.. ربما لتبحث عن قوت يومها.. أما هو..

- أم.. كم أنا جائع!.. لم أكل شيئاً منذ البارحة.

وشعر بالتعب الشديد من كثرة الطيران.. حاول أن يحط في مكان ما، لكن يبدو أنه ابتعد كثيراً فلم يجد شجرة أو بيتاً يحط عليه كي يستريح من عناء الطيران.

يريد قطع الطريق وهو ينزف من كل مكان في جسمه، أوشكت السيارات والشاحنات أن تدهسه.. سيارات خطيرة لا يتوقف سيلها ولا تتباطأ حركتها، ولا يصمت صوت محركاتها المخيف.. تردد في عبور الطريق فتوقف عند حافته ينظر يمنة ويسرة من دون أن يجزؤ على خطو خطوة واحدة إلى الأمام.. شعر بالخوف الشديد..

- هذه السيارات ستحطم رأسي الصغير، وتحيل جسدي إلى شظايا متناثرة في الهواء.. يا لخطر الطريق والسيارات السريعة على القطط الضعيفة والساذجة مثلي!..

ثم أضاف منهكاً وقد بلغ إعياءه وجوعه منتهاه: - تعبت من كثرة الجري.. وأكاد أهلك من شدة الجوع.. يبدو أن حياة القطط ليست سهلة أبداً كما بدا لي.. أين النوم؟ أين الأكل؟ لم أجد لهما أثراً منذ غادرت البيت في الصباح.

- البيت؟ أمي.. أبي.. إخوتي.. وشعر بالحنين والشوق إلى أهله.. وبدأ الشعور بالندم يؤلم قلبه الصغير.

حل الظلام وهو لا يزال في بحثه لا يكاد يجد له وإن مكاناً صغيراً يأوي إليه.. وطأة الشعور بالبرد تشدد.. ثم هذا الجوع.. إن بطنه خاو ولم يأكل شيئاً منذ الصباح.

- أم.. أشعر بالجوع الشديد.. والتعب.. والخوف.. والبرد.. فأين المفر؟!

وائل والعصفير

قضى وائل ليلة ليلاً في العراء مكوماً حول نفسه، خائفاً من كل شيء حوله.. عندما فتح عينيه وجد نفسه فوق غصن شجرة يغرد بصوت جميل.. ووجد الطيور حوله تغرد محدثة جلبة وضوضاء



لديه قوة لم يكن يعلم بوجودها، والرغبة في البقاء حياً أمدته بشجاعة كبيرة لم يكن يعلم أنه يتصف بها.. لم يكن يلتفت وراءه خوفاً من أن يتهاوى ضعفاً أمام الصقر القوي ومنظره المرعب وهو فاتح فمه ليكون وجبة لذيدة له في هذا اليوم العصيب.. لا يزال في هبوطه الاضطرابي السريع وعيناه مغلفتان حين ارتطم بالأرض أخيراً.. لمس بجناحيه التراب فبكى فرحاً وسروراً..

- أنا على الأرض أخيراً.. الحمد

لله.. الحمد لله..

ثم همس وهو لا يزال يلثث وقلبه يتخبط بين ضلوعه:

- الطيران ليس ممتعاً في كل الأحوال كما اعتقدت! ما كان على طائر صغير وضعيف مثلي الطيران وحيداً في أجواء مليئة بالصقور والطيور الجارحة الخطيرة.. لن أعيد هذه المجازفة أبداً. لم يكذب يلتقط أنفاسه اللاهثة المتقطعة حتى سمع نباح كلب يقترب منه.. وقف يمين النظر، فإذا بصياد ومعه أطفال صفار وكلاب يبحثون عما يصطادونه في الغابة الجميلة.. شعر وائل بالخطر يتهده من جديد.. فقد

عرف بالغريزة أن هؤلاء أعداء له، وإن أمسكوا به فلن يفلتوه.. وللم مخاوفه، ونهض يجري على غير هدى.. المهم أن يهرب..

صاح طفل صغير كان يرافق الصياد:

- أبي.. انظر.. هناك طائر صغير يبدو أنه سقط لتوه من عشه.. سنذهب لإحضاره..

وصاح بالكلب وبقاقي الأطفال فجروا تجاه وائل ييغون الإمساك به. قال طفل آخر وهو يضحك:

- لم أكن أعلم أن الطيران يسبب التعب أيضاً! ثم أضاف متذمراً كعادته:

- كل شيء متعب في هذه الحياة؟ أين أجد الراحة إذن؟

وبينما هو يفكر في مكان يحط فيه، إذ بصقر كبير يقترب منه بسرعة مذهلة.. عرفه وائل، وعرف خطره عليه، فلطالما رآه في الرسوم المتحركة، وما يفعله بالطيور الصغيرة مثله.. أطلق العصفور وائل



جناحيه الصغيرين، وطار بأقصى سرعته والصقر خلفه فاتحاً فمه يبغى التهامه ومخالبه تتحفز لالتقاطه من السماء.. صرخ وائل بأعلى صوته:

- النجدة.. ساعدوني.. ساعدوني.. ومن يسمعه وهو في كبد السماء، عالياً، بعيداً عن كل المخلوقات.. ولم يجد بداً من الهبوط.. الهبوط بسرعة.. فراراً من الصقر أن يأكله.. لفحت الرياح الباردة وجهه وهو يهبط بسرعة خارقة، فالخوف الشديد أظهر

عن الأكل طيلة اليوم، فإن شبعت استلقت على البساط الأخضر سعيدة مبهجة.

- هذا ما أبحث عنه بالضبط.. الأكل والراحة فقط! لم أجدهما مع القطط أو الطيور، وها أنذا أعثر عليهما أخيراً مع الخرفان! صحيح أن من يبحث يجد حتماً ما يريد!

وغرته السعادة الغامرة التي شعر بها بعد يومين من المخاوف والأخطار، والجوع والبرد، فأخذ يبتعد عن المرعى دون أن يدري أنه يبتعد، ضربه الراعي بعصا غليظة يوقظه من أحلامه، بل من أوهامه، قائلاً له بفضاظة وغلظة:

- إياك أن تبتعد عن المرعى أيها الخروف المتمرّد.. فلا ضربتك ضرباً مبرحاً إن فعلت! ألمته الضربة على ظهره، فابتعد عن الراعي وعصاه الغليظة وهو يئن أنيناً موجعاً.

- يا له من راعٍ قاسي القلب، يضربني بلا رحمة أو شفقة!

وغضب وائل الخروف غضباً شديداً، فقرر الابتعاد متعمداً هذه المرة كي يغيظ الراعي فيعاقبه على تصرفه. وبينما الخرفان ترعى آمنة مطمئنة هادئة: تسلك الخروف وائل من بينها متخفياً في كومة الصوف التي تغطي ظهره وتدفعه، حتى وجد نفسه بعيداً عن القطيع كله.. صاح فرحاً:

- أليس هذا أفضل بكثير!.. أن أكون خروفاً أنعم بالأكل والراحة وبالحرية! لم ينته من جملة حتى سمع خشخشة الأوراق كأن أحداً يسير فوقها، نظر خلفه فإذا عينا الذئب تلمعان غير بعيد عنه..

- الذئب!! كيف نسيت أن الذئب هو العدو الأول للخرفان والنعاج الغبية التي ترعى بعيداً عن القطيع!.. يا لغبائي!

- سننتفه ونشويه ونأكله.. أنا أحب لحم الطيور.. سيكون طعامنا لذيذاً!

كان منتهى أحلام وائل الحصول على شيئين فقط: النوم والأكل، فما وجدتهما في أي مكان قصده، وها هو بدل أن يجد لقمة واحدة يضعها في فمه يكاد يكون طعاماً لهؤلاء الأطفال.. يا لها من حياة بائسة!.. وظل وائل يطير ويطيّر ونباح الكلب خلفه يفزعه، وأصوات الأطفال تهدهده، وبندقية الصياد مصوبة نحوه، وفجأة أثقل جناحاه فهوى على الأرض مغشياً عليه لا يتحرك له جفن!

وائل والخرفان

في اليوم التالي فتح وائل عينيه، فإذا به محاط بعدد كبير من الخرفان ترعى حوله وهو في وسطها لا يدري ما الذي أوصله إلى هذا المكان. قال له خروف كان يرعى بقره:

- ابتعد عن طريقي فأنت تمنع المرعى عني.. هذا المكان لي!

ابتعد وائل، وأمعن النظر في نفسه فإذا به خروف مثلهم.. وتذكر حلمه.. لقد تمنى أن يكون خروفاً يقضي يومه يأكل الأعشاب والحشائش، لا يفعل شيئاً آخر غير ذلك، حتى ينتهي اليوم فيعود مع الراعي سعيداً مبهجاً.

- هذا أفضل بكثير من حياة الطيور التي اعتقدتها سعيدة وآمنة حين تطير بعيداً في السماء.. على الأقل أنا هنا أضع قدمي على الأرض الصلبة الآمنة ولا يتهددني شيء، والمرعى أمامي لا يمنعني مانع من الأكل والراحة طوال اليوم.. يا لسعادتي الآن! فقد ارتحت من كل المخاوف.

فعلاً! فقد كانت الأرض خضراء نبتت فيها أنواع الأعشاب والأزهار والحشائش بعد تساقط الأمطار، وما كان للخرفان عمل آخر تقوم به سوى الأكل.. لا تتوقف



- عيد الأضحى على الأبواب.. لأبيعتك لأول
مشتري أو لأذبحتك بعد أيام عقاباً لك على تمرّدك!
- ماذا؟؟؟؟

وائل يستيقظ من أحلامه
أخذ وائل يصرخ بأعلى قوته:
- لن أبحث عن الأكل والنوم بعد اليوم.. ولن
أعصي والدّي في أي أمر.. وسأتخلص من كسلي
ومن أحلامي الهزيلة.. لا أريد أن أكون قطعاً أو
عصفوراً أو خروفاً.. أريد أن أكون طفلاً نشيطاً
مثابراً مجتهداً مطيعاً لوالدّي.. لن
أتمرد بعد اليوم..

ثم وهو يبكي بكاء مريراً حسرة
وندماً:

- أريد أن أعود إنساناً كما كنت.. أن
أكون وائل الطفل الصغير.. أريد أمي..
أبي.. إختوتي.. أريد العودة إلى بيتنا
الدافئ.. أريد أمي..

وما زال يصرخ ويصرخ حتى فتح
عينيه، فإذا بعائلته حول سريره تهديّ
من روعه وتمسح العرق المتصبب على
جبينه وتساله عما به.. ارتمى بين
أحضانهم يضمهم إليه بقوة قائلاً:

- أنا وائل، أليس كذلك؟ لست قطعاً
ولا عصفوراً ولا خروفاً.. أليس كذلك؟!

نظر الجميع إلى وائل في دهشة، فابتسم حين
عاد إليه وعيه كاملاً، وقد أدرك قيمة حياته إنساناً
كرمّه الله، وقيمة عائلته التي تحبه، والبيت الذي
يؤويه، والخيرات التي ينعم بها.. قال بحب كبير وقد
هدأت نفسه أخيراً واطمأن قلبه:

- الحمد لله.. كان حلماً مزعجاً.. بل كابوساً
مرعباً.. الحمد لله! ■

وأطلق ساقيه للريح يجري وهو ينادي بأعلى
صوته:

- باغ.. باغ.. أنجدني أيها الراعي.. النجدة..
النجدة.. ذئب يلاحقني.. باغ.. باغ..

ومن يسمعه؟ فقد ابتعد كثيراً.. ولا بد أن يجري
مسافة كبيرة كي يلحق بالقطيع الذي كان فيه.. وظل
وائل يجري ويجري والذئب خلفه يكاد يمسك به..

- ما أتعس حياة الخرفان والذئب متوثب دوماً
لالتهامها!



وما زال يجري وهو ينادي:

- باغ.. باغ.. باغ..

وخرج لسان وائل الخروف من فرط الجري
والمناداة حتى لمح القطيع من بعيد، فإذا الراعي
يقبل نحوه بعصاه وينقذه من الذئب بالكلاب التي
كان يستعين بها على حراستهم.. قال الراعي غاضباً
مهتماً متوعداً: